



النهايات السردية في الرواية العربية المعاصرة
بين صمت الحكى وامتداد الحكاية

Narrative Endings in the Contemporary Arabic Novel:
between the Story Silence and the Tale Extension

حسين تروش

جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2 (الجزائر)، h.terrouche@univ-setif2.dz

ملخص:

اختصّت النهايات السردية في الرواية العربية المعاصرة بعناية خاصة من قبل الكتّاب الذين سعوا دائما لإشراك المتلقي في صياغة الخاتمة المناسبة للأحداث، أو النهاية المقبولة للشخص، وقد وظّفوا، للوصول إلى هذا الهدف، جملة من التقنيات السردية التي جعلت من تلك النهايات بنية خاصة ومتميّزة في النص الروائي. وقد سعى هذا العمل إلى البحث في بعض النصوص الروائية العربية المعاصرة عن مختلف الأنواع السردية لتلك النهايات ودورها الدلالي في إنهاء الحكى في المتن الروائي، بالتوازي مع امتداد الحكاية من خلال ارتباط تلك النهايات بالقراء المتعدّدين الذين يفتحون من خلال تأويلهم لها آفاقا دلالية أوسع لتلك النصوص وأحداثها.

كلمات مفتاحية: الرواية؛ النهايات السردية؛ صمت الحكى؛ القاريء؛

امتداد الحكاية

Summary:

Narrative endings in contemporary Arabic novels have received special attention from writers who always strive to engage the recipient in formulating suitable conclusions for events or acceptable endings for characters. To achieve this goal, they have employed various narrative techniques that have made these endings a distinctive and unique structure within the narrative text. This work aims to explore some contemporary Arabic narrative texts, examining the different narrative

types of these endings and their semantic role in concluding the narration within the narrative text. Simultaneously, it examines the extension of the story through the connection of these endings to multiple readers who, through their interpretation, open broader semantic horizons for these texts and their events.

Keywords: Novel, narrative endings, silence of narration, reader, extension of the story

1. مقدمة:

اهتمّ نقاد الرواية بدراسة العديد من البنى السردية المهمة كالأحداث والشخص والزمان والمكان والعقدة والحل، ولكنهم في كثير من الأحيان يهتمون بدراسة النهايات السردية لأنهم يعدونها جزءاً مرتبطاً بالحل ارتباطاً عضوياً، ولا يمكن دراسته بمعزل عنه، وهو -في اعتقادي- حكم يحمل الكثير من الإجحاف في حقّ هذا العنصر البنائي الذي يحمل أهمية خاصة ومتميّزة.

ولتأكيد هذه الأهمية فقد سعى هذا العمل إلى طرح إشكالية خاصة تدور حول القيمة السردية لهذه النهايات، ودورها في ربط النص بالقارئ، وعلاقتها بامتداد الحكاية رغم صمت الحكيم.

وللإجابة عن هذه الطروحات فقد انطلق البحث من جملة من الفرضيات التي تحاول الإجابة عن جملة من الأسئلة الإشكالية، أهمها أن النهايات السردية هي عنصر بنائي مستقل، وله قيمة سردية خاصة توازي في أهميتها العناصر البنائية الأخرى، وأنّ الروائيين المعاصرين استعانوا بها، ليس لختتم أحداث نصوصهم فحسب، بل ولفتح آفاق دلالية أوسع من خلال إثارة القارئ ودفعه إلى المشاركة في تطوير الأحداث خارج النص.

وهذا يتحدّد هدف البحث العام وأهدافه الخاصة، فهو يسعى إلى التأكيد على خصوصية النهايات السردية بعدّها عنصراً بنائياً مستقلاً لا علاقة له بختتم أحداث الرواية، كما يهدف إلى الكشف عن التقنيات السردية التي استعان بها الكتاب، ليس لختتم نصوصهم وإنما لجعلها منفتحة على دلالات أوسع من خلال ربطها بخيال القارئ الذي لا حدود لدلالاته.

وقد اتّبعنا منهج الاستقراء لمختلف النصوص الروائية العربية المعاصرة للكشف عن تلك النهايات، ثم تحليلها دلالياً للكشف عن علاقتها بأحداث النص من جهة،

وبالأحداث التي يمكن أن يضيفها القارئ من جهة أخرى، لنصل في النهاية إلى تحديد الخصائص التي تميّز هذه النهايات من نص إلى آخر.

2. مفهوم النهايات السردية:

ترتبط الدلالة المعجمية للنهاية بالغاية التي يراد الوصول إليها، "حيث ينتهي إليها الشيء، وهو النهاء، يقال بلغ نهايته، وانتهى الشيء وتناهى ونهَى: بلغ نهايته، فالنون والهاء والياء أصل صحيح يدل على غاية وبلوغ، ومنه أنهيت إليه الخبر: بلغته إيّاه، ونهاية كل شيء غايته"¹، فهي ترتبط بالهدف الذي يرنو الكاتب الوصول إليه.

غير أنّ ارتباط النهاية بالغاية لا ينفي ارتباطها بأحداث سابقة عليها، فقد جاء في قاموس السرديات أن "النهاية تتبع أحداثاً سابقة عليها، ولا تكون متبوعة بغيرها من الأحداث، وتؤشر لحالة من الاستقرار النسبي"²، وهو ما عبّر عنه أرسطو في كتابه (فن الشعر)، حيث قابل بين البداية والنهاية، واعتبر "النهاية على النقيض من البداية، فهي التي تعقب بذاتها- وبالضرورة- شيئاً آخر، إما بالتحتمية، وإما بالاحتمال، ولكن لا شيء آخر يعقبها"³.

وقد شاع، بالتوازي مع مصطلح النهاية، مصطلح الخاتمة، غير أنّ "الخاتمة مرتبطة أكثر بالممارسة الخاصة بالمؤلف (عملية الكتابة) أما النهاية فتربط بمآل الأحداث وتطوراتها، وهو أمر يتعلق بتتابع السرد وفضاء التأويل، ولكن مع ذلك يبقى الفصل بينهما عسيراً في استعمالات النقد العربي المعاصر، وإن كانت معظم دراسات السرد تميل إلى استعمال مصطلح النهاية"⁴.

وقد استغلّت الرواية المعاصرة هذا الإجراء السردى للتعبير عن نهاية الأحداث وليس نهائية السرد "ففي اللحظة التي نصل فيها إلى المعنى التام نصل أيضاً إلى النسيان والغياب، المعنى الحسّي يمتد إلى أفكارنا الواضحة إلاّ أنّه مفتوح بلا نهاية وليس نهائياً"⁵، أي أنّ نهاية الرواية أصبحت تمثّل بنية إشكالية متميّزة في السرد الروائي العربي والعالي، وهي لا تمثّل بأي شكل من الأشكال نهاية للخطاب، بقدر ما تمثّل استمراراً

للسرد، وقد عبر عن ذلك أراغون في مقولته الشهيرة: "أبدأ يعني أتكلم، أكتب. أنتهي لا يعني هذا إلا السكوت"⁶.

وتجدر الإشارة إلى " الصعوبة التي سنواجهها لفهم وتحليل الإغلاق الروائي عامة، والخاتمة النصية خاصة، التي لم تصبح بنية نصية فقط، وإنما مفهوما علميا، يشتغل عليه بمساعدة إعلانات النهاية التي تقوم بتنظيم نهاية الحكى⁷، وهي الصعوبة المتأتية من اختلاف أشكال هذه النهايات من نص لآخر، ومن اختلاف قدرات القراء على تحديد دلالاتها.

3. القارئ ودوره في تعيين النهاية السردية:

تحديد شكل النهاية السردية ودورها في النص يعود إلى موقف المتلقي من أحداث الرواية التي يتتبع نموها من البداية، فهو الذي يحدد إن كانت نهاية مغلقة أم مفتوحة على أحداث متخيّلة خارج النص، ف " لكل نهاية ميثاقاً ضمناً مع قارئ مفترض، كما لها أفق انتظار وتوقع يبارح بين الاستجابة والتخييل"⁸.

غير أنّ ارتباط النهايات السردية بالقارئ لا يعني أنّ الكاتب لم يهدف إلى خلق تلك العلاقة بين نصّه وبين جمهور المتلقين، فالأكيد أنّ المبدع جعل من النهاية السردية "موضعا يبني فيه اكتمال الخيال وانفتاحه في آن، ويسعى فيه إلى مضاعفة التأثير في القارئ حتى يسترجع عناصر القصة عبر إعادة القراءة أو التذكرو يأخذ الخطاب في كليته شكلياً ودلاليّاً"⁹، وهذه المشاركة الإبداعية تجعل من القارئ طرفاً مهماً يؤازر الكاتب في الصياغة النهائية للنص.

ولا يمكن أن يحتلّ القارئ هذا الدور المهم في تشكيل النهايات السردية إلا إذا امتلك كفايات خاصة تسمح له بتطوير تلك الأحداث على المستوى التخيلي، " لأنّ القارئ بما يتوفر لديه من كفاءات معرفية وأدبية هو في مثل هذه الحالة الكفيل الوحيد بتحقيق شعرية النص المضمنة في نسيجه عبر اقتنائه وتركيبه لرموز النص المنسقة لاستراتيجيته التوجيهية "¹⁰. فإذا كان موت المؤلف هو مطلب الحداثة النقدية المعاصرة، فإنّ بعث القارئ وإعطائه دورا خاصا هو أساس العملية الإبداعية الجديدة، وتحديد

النهايات السردية لا يمكن أن يكون عنصرا لغويا ودلاليا واضحا، بقدر ما هو عنصر تخيلي يحتاج إلى قارئ متميز يساهم في انفتاح الدلالة.

4. الأشكال السردية للنهايات الروائية:

اتخذت النهايات السردية أشكالا عديدة في الرواية العربية المعاصرة، تحدت بحسب المنظور السردى الذي يُنظر إليها منه:

1.4 النهايات الروائية من منظور اللغة:

وتتمثل في جملة من الوحدات الإملائية واللغوية التي تدل على وصول النص إلى نهايته وهي:

1.1.4 نقطة النهاية:

هي عبارة عن "علامة إملائية دالة تسبق أخرياض في النص"¹¹، فهي "تمثل النهاية الفيزيائية للنص وليس الدلالية"¹²، لأنَّ القارئ يتوقّف عن فعل القراءة ولكنه يستمر فعل التخيل.

2.1.4 كلمة النهاية:

وترتبط بتلك اللفظة القفل التي اختار الكاتب أن يغلق بها هذا العالم الروائي، وهي آخر ما يسمعه القارئ من حوارات النص، وآخر ما تمرّ عليه عينه الفاحصة، لفظة ترسخ في ذهنه ليس لأنها الأخيرة، بل لأنها تختزل كل النص، تتردّد في ذهنه فتثير الكثير من الأسئلة الإشكالية التي تسمح له بتمديد الأحداث وتوسيع الدلالة.

3.1.4 الجملة النهائية:

هي الجملة التي بإمكانها تحديد النهاية المادية للرواية، كونها وحدة نهائية دالة¹³، وهي تمثّل العبارة الأخيرة التي تحمل آخر دلالة إخبارية في النص، وعادة ما تتميز بالكثافة اللغوية التي تختزل في تلك العبارة الرواية كلّها، قد تبدو في الظاهر أداة إغلاق، ولكنّها في البنية العميقة العبارة الوسيط بين مكتوب المبدع و متخيّل القارئ .

4.1.4 الفصل الأخير، فصل النهايات:

وهو الفصل الذي يحمل الجزء الأخير من الرواية، عادة ما يحمل هذا العنوان، يلجأ إليه بعض الروائيين الذي يتبعون نمط الفصول السردية، "يلعب دورا مهما في الإغلاق الروائي، كخاتمة نصية متاخمة لقربه من الإنهاء السردية، يرتبط بالمرسل إليه أو المسرود له أي القارئ الذي انخرط في فعل القراءة من ذي قبل، ويتأهب الآن للخروج من النص/الرواية، إذانا منه بالغلق الروائي"¹⁴.

2.4 النهايات الروائية من منظور السرد:

ويرتبط هذا النوع من النهايات بالبنى السردية المعروفة كالزمان والمكان والشخص، ولكل منها شكله الخاص في إنهاء السرد:

1.2.4 النهاية الزمكانية :

تتنوع النهاية صياغة وأسلوبية وتخطيطيا وتسريدا، فقد تكون نهاية ظرفية زمانية أو مكانية¹⁵، والمقصود بذلك أن ترتبط الخاتمة النصية بعنصر زمني أو مكاني ارتبطت به أحداث الرواية أو كان الأساس السردية الذي قامت عليه عناصرها السردية الأخرى.

2.2.4 النهاية الشخصية :

تقوم هذه النهاية السردية على الشخصية الرئيسة عادة، أو ما يسمى بالبطل، من خلال "التركيز على الشخصية تعريفا أو تنكيرا أو تبئيرا، لتنتهي القصة بنهاية شخصية، يتم فيها تبئير الشخصية المحورية¹⁶، وإبرازها لأنها تجمع حولها أحداث الرواية وعناصرها السردية الأخرى.

3.2.4 النهاية الحوارية :

والحوارات نوعان، دIALOGUE خارجية أو مونولوجية داخلية، وعادة ما يختار الكاتب الحوار الأخير بعناية بالغة، لأنه يلعب دورين أساسيين، ختم الرواية بشكل مناسب، وفتح آفاق التخيل بشكل بديع.

4.2.4 الحدث الأخير:

يرى لوتمان أن "الحدث داخل النص هو تنقل الشخصية عبر حدود الحقل الدلالي"¹⁷، وبالتأكيد فإنّ هذا التنقل يحتاج إلى نهاية، وهي هنا تتمثل في الحدث الأخير الذي يأمل فيه القارئ أن يكون حدثاً جامعاً لما سبق من أحداث، ومفتاحاً يسمح للقراء بتخيّل أحداث أخرى تجعل منه منطلقاً يتفرّع في اتجاهات مختلفة بحسب مخيلات القراء.

4.3 النهايات السردية من منظور الدلالة:

وترتبط هذه النهايات بتيّمات الرواية التي تنمو وفق أحداث خاصة لتصل إلى الخاتمة التي تكون نتاجاً لتلك الأحداث من جهة، ولموقف القارئ منها من جهة أخرى، هي أربعة أنواع:

1.3.4 النهاية المتوقعة:

وهي النهاية التي تنتهي متساقفة مع أحداث الرواية، وتكون واضحة يتوقعها القارئ.

2.3.4 النهاية المفاجئة:

تنتهي بعض الروايات نهاية تصدم المتلقي لمخالفتها للتّمّو المنطقي للأحداث، ولكسرها أفق التوقّع لدى القارئ، وهي النهاية التي تثير في نفسه الكثير من الأسئلة التي يجيب عنها خارج النص.

3.3.4 النهاية العجائبية:

تنتهي بعض الروايات نهاية فانتاستيكية قائمة على التحول والامتساخ سواء أكان ذلك التحول الخارق تعجباً أم تغريباً¹⁸، فالحل الذي يختاره الكاتب يكون غريباً لا يقبله منطق الأحداث المعاش.

4.4 النهايات السردية من منظور التأثير العاطفي:

ونقصد بالمنظور العاطفي التأثير الذي تتركه النصوص الروائية في نفوس المتلقين وهي نوعان:

1.4.4 النهاية السعيدة:

تتميّز بالإيجابية، وتختتم أحداث الرواية نهاية مفرحة، يكون تأثيرها أشدّ كلما عانت الشخص من الصعوبات ومن الأحداث المحزنة، ولا يكون تأثيرها على الشخص فحسب، بل وعلى جمهور المتلقين كذلك.

2.4.4 النهاية المأساوية:

نهايات حزينة، ومن أهم مظاهرها المأساوية الموت وفقد الأحبة والأوطان، يكون تأثيرها على القراء متفاوتا تبعا لتفاعلهم مع تلك الأحداث.

4.5 النهايات السردية من منظور الانفتاح والانغلاق:

من أشهر النهايات السردية في الرواية العربية، النهاية المفتوحة والنهاية المغلقة أما الأولى، أي " النهايات المغلقة، ففيها تكتمل الأحداث، ويتضح مآل الشخصيات، ويتم فيها الإجابة عن جميع الأسئلة، وهذه أقرب إلى رضا القارئ. وأما النهايات المفتوحة فهي تلك التي تبقى مُسرعة على احتمالات عدة ويقوى فيها دور القارئ كونه مُشاركاً في تصور النهاية وتحديد احتمالاتها"¹⁹، ويمكن تحديدها في التفصيلات الآتية:

1.5.4 النهاية المغلقة:

نعني بالنهاية المغلقة تلك النهاية التي لا تترك وراءها سؤالا أو استفهاما، بل ترد في صيغة إخبارية تقريرية²⁰، ويُشير مفهوم الإغلاق Clôture عند نويل كارول إلى الإحساس النهائي الذي نختم به قطعة من الموسيقى، أو قصة، أو قصيدة. إنه الانطباع بأن النقطة التي ينتهي بها العمل هي النقطة الصحيحة²¹.

2.5.4 النهاية المفتوحة :

كانت أفضل نهايات الرواية المعاصرة النهاية المفتوحة التي لا تقيد النص ولا القارئ ولا الأحداث ولا الشخص، بل تحرّر هؤلاء جميعاً من قيود النهايات المغلقة مهما كانت، لأنها بذلك تحرّر أفق التوقع لديه من رتابة الإجابات الواضحة التي تُبنى في ذهن القارئ من جزئيات الرواية الدلالية التي يستطيع بفطنته أن يتلقّف من بينها النهاية قبل النهاية، فلكل رواية ميثاق للقراءة، ولكل رواية أفق للانتظار²²، والنهايات المفتوحة تبقى مشرعة على احتمالات عدة، ويقوى فيها تشويق القارئ، ليكون مشاركاً في تصور النهاية وعديد احتمالاتها²³.

5. وظائف النهايات السردية:

وظائف الخاتمة النصية تتنوّع باختلاف الجهة التي ترتبط بها، سواء مثّلت تلك الجهة المتلقي أو الأحداث أو القيم الدرامية للرواية، وهذه الوظائف هي:

1.5 الوظيفة الإغرائية:

ترتبط هذه النهاية السردية بجمهور المتلقين، وهنا نجد أن الوظيفة الإغرائية "تستمر فعاليتها في إغراء القارئ لإكمال النص، ومعرفة ما تؤول إليه رحلة السارد مع شخصية"²⁴، وذلك من خلال جملة من الأدوات السردية التي تشدّ القارئ إلى المشاركة في صياغة النص.

2.5 الوظيفة الدرامية:

ترتبط هذه النهاية السردية بالنمو الدرامي لفصول الرواية وتشابكها المنطقي الذي يوصل بالضرورة إلى الخاتمة السردية التي يمكن عدّها البؤرة الدرامية الجامعة لمختلف خيوط النص، وهي " الوظيفة التي نجد فيها التصعيد السردى للأحداث المساقاة لما جاءت به الفاتحة النصية، فهي النقطة الحاسمة التي ستؤذن بالغلق الروائي لأحداث المحكي لهذا سميت الإيذان بقرب انفراج العقدة²⁵.

3.5 وظيفة إثارة الأسئلة:

أغلب النهايات السردية تحمل هذه الوظيفة، فسواء كانت مفتوحة أم مغلقة، فهي تثير في جمهور القراء جملة من الأسئلة التي ترتبط ببعض أقسام الرواية، والتي تبقى تشغلهم بعد انتهاء فعل القراءة.

4.5 الوظيفة التخيلية:

في هذه الوظيفة تتحفز مخيلة القارئ وتستثار لبناء متخيل جديد، امتداداً للسابق²⁶، فبعد إغلاق النص تتحفز مخيلة القارئ ويتم بناء متخيل جديد يعد استمراراً للأثر السابق²⁷، وهنا تفتح أمام النص آفاق دلالية واسعة سعه خيالات القراء وخصوصيتها.

6.5 الوظيفة التنويرية:

النهاية السردية لا تسعى إلى ختم أحداث الرواية فحسب بل إننا نجد فيها "التنوير النهائي للعمل الواحد المتناسك، ومن خلالها يقع الكشف النهائي عن أدوار الشخصيات"²⁸، فكل الغموض الذي اكتنف الأحداث أو الشخصيات داخل المتن الروائي تكشف عن نفسها للقارئ في هذه النهاية.

6. النهايات السردية في الرواية العربية المعاصرة:

استغلت الرواية العربية المعاصرة "النهايات" بعدّها بنية سردية مستقلة يمكن أن تعطي النص الروائي قيمة أكبر وأكثر تأثيراً، وقد نظر النقد المعاصر إلى هذه النهايات بعدّها "مفهوماً إجرائياً بوساطته يمكن تعيين بعض مستويات اشتغال مؤشرات وعلامات النص، سواء على المستوى المادي الملموس أو على المستوى التأويلي الحدسي غير المباشر"²⁹، فعلى المستوى المادي تتجمع خيوط البنى اللغوية والسردية عند هذه البؤرة، وعلى المستوى التأويلي تفتح آفاق التخيل من قبل القارئ خارج النص، وقد وعى المبدعون هذه الحقائق فاحتفوا بصياغة نهاياتهم السردية، ومن هذه النصوص العربية:

1.6 التدوير في النهاية السردية في (رواية بحر الصمت) لياسمينه صالح، الجزائر:

نقصد بالتدوير هنا أنه " قد يحدث، في بعض الأحيان، أن تستعيد إمكانية حكاية ما، بعض العلامات الافتتاحية للسرد ضمن النهاية الروائية، مما يعني أن نهاية وبداية النص تقوم بينهما علاقات ضيقة من التجاور أو المماثلة "³⁰، وقد ختمت الكاتبة الجزائرية روايتها بطلب فتاة من أبيها الذي مارس الصمت في علاقته بها، ما أثر على حياتها وعلى أحداث الرواية بقولها :

"أنا بحاجة إلى وضوحك قبل أن أذهب فارغا من ذاكرتي

ومن صمتي الذي صار بحرا..."³¹

وهو نوع من التدوير الذي انطلق من العنوان (بحر الصمت)، وهو يكشف أن السؤال الذي طرحه القارئ وهو يقف عند عتبة العنوان، مازال مستمرا حتى السطر الأخير من الرواية، وهو ما يعني أن الكاتبة لا توجه الخطاب إلى شخصية الأب، بقدر ما توجهه إلى القارئ الذي تدعوه إلى البحث عن التأويل المناسب الذي يوضح تلك الأحداث النابعة من ذاكرة الشخصية الرئيسة.

2.6 نهاية قلب الأحداث بين القيد والتحرر في (صمت الفراشات) لليلى عثمان،

الكويت:

تصف الروائية ليلى عثمان النهاية السردية لروايتها على الصورة التالية: " التقم شفتي ودموعه تُغرق وجهي، وهمسه العذب يصبُّ في أذني: آآه يا حبيبتي.. ليتني أقدر. تخلص من ذراعي بصعوبة، وفرَّ منحدرًا الدرجات تاركًا قلبي يلحق أساه، وروحي الذائبة المهشمة وراءه وتهمس: آآه يا عطية ... كم أغبطك رغم ما أعانيه، فأنت الآن السيد الحر الذي يتخذ قراره ببسالة الفرسان، بينما أنا - العبد - الضعيفة أكن في أسري، وأنتظر من يمنحني شهادة عتقي "³²، فالسيدة التي وقعت في حب العبد الذي كان خادما عند زوجها الطاعن في السن، جعلها تشعر بالحياة من جديد، غير أن كل الأحداث التي مارست فيها هي سلطة السيد الأمر الناهي، انقلبت في النهاية لتصبح عبدة بين يديه،

ولكنّ ما أدهش القارئ هو رفض العبد لهذا القيد الجديد، قيد الحب، وتحرّره منه ومن قيد العبودية.

3.6 نهاية إثارة الأسئلة في رواية (رجال في الشمس) لغسان كنفاني، فلسطين:

يقول عسّان كنفاني في مقطع النهاية على لسان سائق الشاحنة التي كانت تقلّ الفلسطينيين الهاربين من ويلات الموت ليلقوه داخل صهريج الشاحنة: "... التفت إلى الوراء حيث القى بالجثث، إلا أنه لم ير شيئاً، ولم تجد النظرة تلك إلا بأن أوقدت الفكرة ضراماً فبدأت تشتعل في رأسه... وفجأة لم يعد بوسعه أن يكبحها داخل رأسه أكثر فأسقط يديه إلى جنبه وحداق في العتمة وسع حدقتيه انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه: لماذا لم يدقّوا جدران -الخزان؟ دار حول نفسه دورة ولكنه خشي أن يقع فصعد الدرجة إلى مقعده و أسند رأسه فوق المقود: لماذا لم تدقّوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقولوا؟ لماذا؟ وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى:

- لماذا لم تدقّوا جدران الخزان؟ لماذا لم تفرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟

لماذا؟³³

إنّها جملة من الأسئلة التي اختار الكاتب أن يطرحها على القارئ، وعلى كل فلسطيني "من الواضح أن النهاية الروائية قد كتبت بوعي تام، لتكون سؤالاً أبدياً يقرع أذان الفلسطينيين في كل مكان، بعد أن اختاروا مواجهة الهزيمة بالصمت أو مغادرة الوطن والهروب من مواجهة الواقع، فكان الموت العبي الصامت سواء داخل الوطن أو بعيداً عنه، وخصوصاً في ظل تكرار اسم الاستفهام (لماذا؟) تسع مرات في مقطع النهاية"³⁴، فهل الهروب من مواجهة المصير هو الحل، أم إنّ الحل في الصمود أمامه، تلك هي المعضلة التي أصبحت تشغل بال كل فلسطيني في زمن تولى فيه كل عربي عن قضية الأمة.

4.6 النهاية الأمل في رواية (فرسان الأحلام القتيلة) لإبراهيم الكوني، ليبيا:

يقرّر الكوني في نهاية الرواية بعد أن انتهت معركة الحفاظ على البنيان الذي اتخذهُ هؤلاء الشباب رمزا للوطن أن يتوجّه إلى معركة أكبر وأهمّ وهي معركة التعليم، ورغم خسارته لرجله في تلك المواجهة إلا أنّه لم يخسر عزمته على تحرير الوطن من

برائن الجهل، يقول: "وأعترف أنّ العناية الإلهية لم تجرّدي من هذه اللعنة بسبب عطب الساق كما يظن الأقران، ولكن بسبب وجود البديل، بسبب وجود حرب بديلة أخرى لا تقلّ ضراوة عن حرب تحرير البنيان تقف في انتظاري، لأنّها أيضا تحرير، أليس تحرير الجيل من لعنة المناهج التعليمية المحزنة رسالة لا تقلّ خطورة عن رسالة تحرير المينة من الدنس؟، فالمناهج كانت أيضا دنسا، بل رأس الدنس الذي سمّم روح الجيل، وغرّب الوطن عن وجدان أبناء الوطن، بمحو هوية الوطن طوال هذه السنين، ففي حرم التعليم ينتظرني هذا الجيل، هذا الجيل، الجيل البديل الظالم إلى الحقيقة، الذي لم أكن لأحتكم إلى السلاح في يوم الهبة لأنتقم لنفسي جزاء قتل الأحلام، ولكن لكي أثار بالإنابة عن الجيل من مكيدة اختلاس روح الجيل من ذاكرة الجيل بتزييف تاريخ الجيل، والحرب على تلك الجبهة هي حربي بامتياز، ذخيرة سلاحي في ذلك كتي، ودليلي في السبيل حلمي، الحلم الذي لم يخذلني زمن المحنة، كما لم يخذلني كتي زمن المحنة، الحلم الوديع بقدر ما هو مارد، بدليل أنّه لا يسكننا إلّا كديوان أشعار ولكنه الرسول القادر وحده على استعادة الواقع من بعده المفقود، مفقود بفضل دسياسة أشباح الظلمات في حملتها الخسيسة لقتل الأحلام، ولكن هيهات فالأحلام دلّت على هويتها كعنقاء قادرة دوما على بعث نفسها من رماد الوعد بفردوس الهتان"³⁵.

5.6 النهاية الرسالة في (رواية صمت الملائكة) لابتسام ياسين، فلسطين:

جاءت الخاتمة في هذه الرواية في شكل رسالتين الكترونيتين، لأنّ التيمة الأساس التي قام عليها النص تمحورت حول التواصل الالكتروني بين شاب فلسطيني مقعد بسبب شظية إسرائيلية وفتاة وقعت في حبّه، لتفشّل هذه العلاقة بسبب رفض الأهل، لتكون النهاية فراقا بين الحبيبين، وتكون هاتين الرسالتين علامة على انتصار المجتمع وعاداته على الحب:

- الرسالة الأولى عنوانها (إلى حاضري الغائب)³⁶

- والرسالة الثانية عنوانها (إليك يا منارة قلبي)³⁷

ثم ثلاثة أسطر قصيرة تتوسط الصفحة وتختتم الرواية:

يا سادتي ما أقسى أن تبقى أرواحنا مهمشة

بانتظار رسائل مكتوبة عالقة في طيات بريد القلب

فلا نرسلها ولا نستقبلها ونبقى أسرى الانتظار³⁸.

دلالة على أنّ هاتين الرسالتين ما هما في الحقيقة إلاّ تعبير عن الحال النفسية التي تعيشها بطلة القصة وهي تُبعد عن محبوبها بسبب تلك العادات التي ترفض للبنت أن ترتبط بشاب لمجرد أنّه مقعد.

6.6 النهاية البداية في رواية (الصمت حين يلهو) لخولة الرومي، العراق:

قبل النهاية السردية أوردت الكاتبة عبارة على لسان بطل الحكاية عادل وهو يهاجر من بلده نحو المجهول بعد معاناة طويلة في بلده العراق، تقول: "ها نحن نعبّر الحدود، وضع المهرب. أول خطوة في رحلة المستقبل المجهول، حيث يبقى الهاربون باللااستقرار للعديد من السنين.. دائما غرباء أينما حلوا. نظر عادل خلفه فرأى من بعيد جبال كردستان.. صور تبتعد أراضي أحبها.. أرض الشمس الحارقة، وضياف النهرين وشط العرب. في تلك اللحظات عرف أنّه فقد شيئا.. فقد الانتماء للوطن. وبدأت تلك الربوع التي تنفس هواءها تختفي رويدا رويدا عن بصره في وهج الفجر الذي انبثق ليوم جديد.. يوم آخر"³⁹، ما يدل على تعلّق البطل ببلاده وابتعاده عنها مجبرا لا مخريرا.

وقد كان يمكن أن تكون هذه الأسطر نهاية سردية مقبولة للرواية، ولكنّ الكتابة بلفتة ذكية استطاعت -وهي تضيف سطرين آخرين- أن تلقي بالقارئ في ثنايا خاتمة مفتوحة فتحت أمامه آفاق التخيل الواسعة، تقول: "فتح سائق سيارة البيك آب المذيع على نشرة الأخبار ثم ترجم لهم ما يقوله المذيع.. أمريكا تهدد بضرب العراق.. لحيازته على أسلحة الدمار الشامل"⁴⁰، وهي الكذبة الأكبر التي اتخذها الغرب حجة لغزو العراق وتغيير منطقة الشرق الأوسط كلّها، واتخذتها الكاتبة نهاية، بل بداية فصل جديد في قصة لا تكتبها بنفسها بل يتخيّلها القارئ.

7.6 النهاية الحلم في رواية (الصمت والصخب)، لنهاد سيريس، سوريا:

تدور تيمة رواية الصمت والصخب الأساسية حول الصراع بين الطبقة السياسية الفاسدة والشعب المقهور الذي حاول أن يواجه الصخب الذي اتّخذته الساسة وسيلة للتأثير في العامة وجعلهم يقتنعون بحكامهم ويرضون بالأمر الواقع، والصخب الذي صوّره الكاتب في تلك الأبواق الكبيرة التي زرعت في كل زاوية والتي يبتّ بعضها خطابات الزعيم وبعضها الآخر الموسيقى العسكرية، قرّر الشعب مواجهته بالصمت، ولا يخفى ما وراء هذه الثنائية من دلالات رمزية.

وفي ختام هذا الصراع بين السياسي والشعبي اختار الكاتب نهاية سردية في شكل حلم جاء فيها: " في تلك الليلة رأيت، في ما يرى النائم، حلماً غريباً. رأيت عناصر الأمن قد جاؤوا واصطحبونا أنا ولعي وقادونا إلى أحد الفنادق الراقية وحبسونا في إحدى الغرف. وفجأة تحول الجدار إلى نافذة بعرض الحائط، كنا نرى خلالها ما كان يجري في الغرفة الأخرى دون أن يرونا. دخلت أُمي بثياب الزفاف وبيدها باقة ورد بينما كانت تشبك باليد الأخرى ذراع السيد هائل وكان يظهر عليهما أنهما قادمان من حفلة الزفاف. نظر السيد هائل إلى النافذة وأشار إلي لكي أرى ما سيفعله ثم راح يمزق ثياب أُمي، بعد ذلك رماها بعنف على السرير وراح يغتصبها. أمسكت بكرسي وأردت تحطيم الزجاج لكي أذهب وأنقذها من براثن هذا الوحش إلا أن لعي أمسكت بي ومنعتني ثم أشارت إلى أُمي.

كانت تتمتع بما كان يجري لها، حتى أنها صرخت من المتعة. نهض عنها السيد هائل مستغرباً وصار ينظر إليها وإلى النافذة وقد أزعجه رد فعل أُمي. نهضت عن السرير وصارت ترجوه ليعود إليه إلا أنه أبعداها عنه بلوّم ثم اقترب من النافذة وجعل يهددنا بقبضته. كان غاضباً من انقلاب خطته وفشلها. اقتربت منه أُمي وصارت تشده ليعود إليها إلا أنه دفعها مرة ثانية ثم خرج من الغرفة وهو يشتم بينما راحت أُمي تلحق به ممزقة الثياب ترجوه ليعود.

رأيت في الحلم أيضاً أننا صرنا، أنا ولعي، نضحك حتى سقطنا على السرير⁴¹، فسبب هذا الضحك من رموز الشعب المقهور هو سقوط مخططات رموز الأنظمة

الفاشية التي تحاول في كلّ مرّة كسر إرادة الجماهير، ولكنها تُجابه بالصمت الذي يرمي بصخبهم إلى غيابات الفشل.

7. خاتمة:

تعددت أشكال النهايات السردية في الرواية العربية المعاصرة تبعا لموضوعاتها وتفاعل القراء معها، وهو ما يبرز اهتمام الكتاب المعاصرين بالخاتمة التي لا تأتي في كثير من الأحيان جزافية، بل هي كما يبدو من الروايات التي اختار البحث التطبيق عليها، نتاج وعي المبدعين الذين يضمّنونها دلالات خاصة قد تستنبط من المضامين النصية نفسها، كما يمكن أن تحمل رسائل خاصة يراد من خلالها لفت انتباه القارئ إلى قضايا خاصة.

ومن هذا المنطلق تحوّلت النهايات النصية إلى بنى سردية متميّزة تتعاضد والبنى السردية الأخرى كالأحداث والشخص والزمان والمكان وغيرها، ولا يمكن إهمالها أثناء عملية التحليل السردية .

ومن الأشكال السردية لهذه النهايات، النهاية المدوّرة، وهي التي تنهي النص من حيث بدأ، حيث تتكرر وحدات العنوان اللغوية إيدانا بوصول الرواية إلى الجواب الشافي لتلك الأسئلة التي طرحها العنوان، أو الإعلان بعجز النص عن ذلك والتسليم بسلطة البحث عن الجواب للقارئ.

ومن النهايات السردية التي لجأ إليها المبدعون نهاية قلب الأحداث، التي يتفاجأ القارئ عند الوصول إليها بأنّ أحداث النص التي نمت في نمط تصاعدي معين قد وصلت إلى خاتمة تخالف تماما ذلك النمط إلى درجة التضاد في بعض الأحيان.

أما نهاية إثارة الأسئلة فهي تلك التي تثير في القراء جملة من الأسئلة الإشكالية التي يساهم المتلقون من خلال الإجابة عنها في استمرار الحكاية خارج النص، لتأتي خواتيم مثل النهاية الحلم، والنهاية الأمل لتعطي المتلقين دلالات إيجابية تساهم في استمرار النص.

ومن النهايات السردية التي استمدها الكتاب من التلاقح بين الإبداع الأدبي والوسائط التقنية الخاتمة/ الرسالة الالكترونية والتي تتميز بكثافتها اللغوية التي يمكن أن تحمل دلالات عميقة وواسعة.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- ابن منظور الأنصاري، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت- لبنان، (د، ت)، مادة (ن. هـ. ي).
- 2 - جيرالد برنس، قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، القاهرة: ميريت للنشر، ط1، 2003 ص 58
- 3- أرسطو، فن الشعر، ترجمة وتحقيق: إبراهيم حمادة، هلا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1999ص128.
- 4- أحمد بن سعيد العدواني، النهايات السردية في روايات غسان كنفاني، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 17، ماي 2016، ص 103
- 5 - Merleau-Ponty,(1994) le visible et l'invisible, Gallimard, Paris, p314.
- 6- L. Aragon,(1969) Je n'ai jamais appris à écrire ou les incipit, Genève, p.96.
- 7- Guy Larroux,(1995) Le mot de la fin la clôture romanesques en question, éd. Nathan, Paris, p16
- 8 - عبد الملك أشهبون، البداية والنهاية في الرواية العربية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013، ص 232
- 9- محمد قاضي وآخرون، معجم السرديات، ط1، دار محمد علي، تونس، 2010، ص 167
- 10- جلييلة الطريط، شعرية الفاتحة النصية، حنا مينة نموذجاً، مجلة علامات، المغرب، عدد29، 1989، ص149.
- 11 - Guy Larroux, (1995) ; Le mot de la fin, la clôture romanesques en question, p.30.
- 12- حسين خالد حسين، في نظرية العنوان-مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية-، دراسات التلوين، دمشق، 2007، ص 357
- 13 - Guy Larroux, (1995) Le mot de la fin, la clôture romanesques en question, p 18-19
- 14- ينظر: عبد الحق بلعابد، شعرية الفاتحة النصية والخاتمة النصية (في رواية تميمون لرشيد بوجدر)، ضمن فعاليات ملتقى رشيد بوجدر وإنتاجية النص، منشورات crasc وهران، (4-5 نوفمبر 2004)، ص 56
- 15- جميل حمداوي، من أجل تقنية جديدة لنقد القصة القصيرة جداً: المقاربة الميكروسردية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2014، ص 367
- 16- جميل حمداوي، المعمار النصي في القصة القصيرة جداً، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور، المغرب، ط1، 2010، ص 34

- 17- Louri Lotman ; (1973) ; La structure du texte artistique, ed , Gallimard , paris ; p 326
- 18- جميل حمداوي، من أجل تقنية جديدة لنقد القصة القصيرة جداً: المقاربة الميكروسردية، ص378
- 19- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات في نقد الرواية، ط 1، مكتبة لبنان، بيروت- لبنان، 2002، ص 8
- 20- جميل حمداوي، من أجل تقنية جديدة لنقد القصة القصيرة جداً: المقاربة الميكروسردية، ص 378
- 21 - Armelle parey ; (2019); Revolutionary Closure in A. S. Byatt's Neo Victorian Fiction, etudes britanniques contemporaines journals, p23
- 22 - J . P . Goldenstein ; (1990) ; Entrées en littérature , Hachette , p. 86
- 23 - لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ط 1، بيروت: مكتبة لبنان، 2002، ص 86
- 24- عبد الحق بلعاب، شعرية الفاتحة النصية والخاتمة النصية (في رواية تميمون لرشيد بوجدر)، ص57
- 25- المرجع نفسه، ص 58
- 26- منى عبد الله المفلح، البداية والنهاية في القصة القصيرة السعودية، ط 1، دار المفردات، الرياض، السعودية، 1435هـ - 2014م، ص 306
- 27- إدريس بلمليح، القراءة التفاعلية، دراسة لنصوص شعرية حديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص82
- 28- يوسف الشاروني، القصة القصيرة نظرياً وتطبيقياً، سلسلة الهلال، العدد316، القاهرة، 1977، ص 70-71
- 29- عبد الملك أشهبون، البداية والنهاية في الرواية العربية، ص 236
- 30 - Charles Grivel ; (1973) ; Production de l'intérêt romanesque , un état du texte , 1870-1880 , un esEa" w:hAnsi="Sakkal Majalla" w:cs="Sakkal Majalla"/>